كلية غوردون

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعدُ

وما اصدق هذا القول على السودان فقد عهدناهُ منذ سنوات قليلة مرتعًا للجور والظلم ومرسحًا للاستبداد وسفك الدماء اسدلت حجب الغباوة على اهلهِ واذاقوا مرارة التعاسة والشقاء حتى لم يبقَ في تلك البلاد الواسعة الأرجاء اثر للعدل والعمران وحتى بات الناس يضربون المثل بتوحش حكامها واستبدادهم الفظيع ويتوجعون لبضعة ملايين من اخوانهم باتوا تحت رحمة العتاة الظلَّام من اولياء الامر فيهم ويتمنون لو يقوم من السودانيين من ينقذهم من قبضة يدهم ويريحهم من شرهم ويمهّد للبلاد سبيل التمدن والعمران فتنفتح ابوابها للتجارة وتنشط فيها الزراعة من السبات العميق الذي أُلقي عليها

وكان الرجل الذي قاد الجيوش المصرية والجنود الانكليزية الى مواقع النصر ومواطن الظفر لم يكفهِ محو سلطة الدراويش وثل عرش التعايشي بل رأى بعين بصيرتهِ النقّادة ان هذا الفتح سيحلّ السودانيين من قيودهم فيطلبون الارتقاء والتقدم بحكم السنن الطبيعية فاستنجد ذوي الفضل والسخاء من بين امتهِ وطلب اليهم ان يسعفوا السودانيين فيوافوهُ بما تجود بهِ ايديهم من المال لانشاء مدرسة كلية في الخرطوم تذكارًا للبطل غردون الذي بذل حياتهُ في الدفاع عن تلك المدينة فبادر القوم الى اجابة ندائهِ وبعد زمان قصير زاد ما تبرَّع بهِ الفضلاء لهذا الغاية عمَّا طلبهُ مبتكر المشروع فوضع اساس المدرسة وابتدأ العمل فيها بهمة وجدّ ثم دُعي الى جنوب افريقية فكلف سعادة حاكم السودان العام ان يتولّى ادارة العمل بالنيابة عنهُ فافرغ جهد المستطاع في اتمام البناء على الوجه المطلوب

وقد احتفل بفتح هذه المدرسة في ٨ نوفمبر الماضي احتفالاً باهرًا قصدهُ اللورد كتشنر في طريقهِ الى المنتد فزين بناؤها اجمل زينة واصطفت فرقة من الجنود على رصيفها لتأدية السلام العسكري حتى اذا ما وصل اللورد كتشنر حيتهُ فمشى بين صفين من الطلبة ولمَّا استقرَّ بهِ المقام انبرى سعادة السر ريجنلد ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام فرحب بهِ باسم الجيش الانكليزي والمصري في السودان ورجال الحكومة السودانية وعلماء البلاد ومشايخها واعيانها واشار الى غيبتهِ في جنوب افريقية وما لقيهُ من الفوز في انجاز الحرب فيها واعرب عن فرح الجميع برؤيتهِ من الجنود التي تولّى قيادتهم الى الاهلين الذين يذكرونهُ طول عمرهم كمنقذهم من قبضة الخليفة وكاول حاكم بريطاني للسودان بعد ذلك البطل غوردون باشا الذي

بذل جهده في المحافظة على سطوة الحكومة المصرية وباع حياته في الدفاع عنها منذ ١٨ سنة الى ان قال "وقد ارتأيتم ان تخلدوا ذكر اعماله المجيدة في السودان بانشاء مدرسة كلية تدعى باسمه ولا اتولى الكلام عما جرى بعد ان اعلنتم رغبتكم هذه وحسبي ان اقول ان نداءكم اجيب بسرعة غريبة فانهالت العطايا من كل حدب وصوب وفي زمن قصير جمع مبلغ طائل من المال وكان اكثره من بريطانيا العظمى وبعضه من كندا واوستراليا وزيلاندا الجديدة ومستعمرة الراس والولايات المتحدة والهند ومصر. ولما انتقلت الملكة فكتوريا الى رحمة ربها اتخذ جلالة الملك المدرسة تحت رعايته اقتداء بوالدته وقد قال اللورد سالسبري في كلام له عن هذه المدرسة "ان الخاطر الذي خطر لكم واجب وجبة علينا نحو الامبراطورية واتساع ارجائها وان من اشرف الاعمال ازالة الموانع الجنسية لتأييد الاشتراك العقلي بين الامم وتسهيل ترقية البشر" وقبل ان دعيتم الى جنوب افريقية كان العمل قد ابتدأ في البناء ونجز قسم منه فألقي على عاتقي القيام باتمامه على الوجه الذي ارتأيتموه فاقتضت الحال احداث تعديل طفيف في البناء وسترك لكم الحكم فيما اذا كنا قد احسنا القيام برغبتكم وحققنا املكم والاستعداد جار لاستقبال المعمل البكتيريولوجي والتحليلي الذي تكرم به المستر ولكم والعمل جار في تشييد بناء خاص بالجهاز الذي اهداه الكريم السر وليم ماذر لتعليم الصناعات والاشغال اليدوية وسيتولى المستر كري مدير المدرسة الكلام في هذه الشؤون مفصلاً لكني اغتنم الفرصة للاشارة الى المساعدة التي بذلتها لنا نظارة المعارف العمومية المصرية ومن موجبات سروري ان السكرتير العام للنظارة المشار اليها موجود بيننا اليوم وفي الختام اقول انني ما دمت حاكم السودان العام فسأبذل الجهد في انجاح هذه المدرسة التي سيكون لها نفع جليل في تقدم البلاد وارتقائها

وعقبه المستر كري مدير المدرسة فقرأ كتاباً من السر وليم ماذر الى اللورد كرومر اعرب فيه عن الغاية التي يطلبها في اهدائه هديته النفيسة وهذه الهدية مؤلفة من جهازات كاملة من قزانات وآلات بخارية وكربائية وطلمبات لرفع الماء من النيل الى المدرسة وادوات لتشغل في الخشب والمعادن ورسوم خاصة بهذه الآلات وكيفية تركيبها ووضعها. ومما جاء في هذا الكتاب قوله "اما الغرض من انشاء هذا القسم الصناعي فهو تسهيل التعليم لابناء السودان فيقرنون العلم العقلي الذي يتلقونه في غرف الدرس بالعلم العملي اذ من المعلوم والمتفق عليه ان الصغار سريعو التعلم جيدو الحفظ فاذا اهتموا بما يشغل ايديهم وعيونهم واذهانهم باستعمال الآلات والادوات والعمل في المواد المختلفة تمكنت فيهم دقة النظر والاعتناء والاستنتاج العقلي الصحيح مما يؤول الى ترقية قواهم المولدة فيصل الاثر المطلوب الى العقل عن طريق

الحواس ومن الواجب ان تكون الطبيعة ودرسها خير الوسائل الفعّالة في تعليم الامم السريعة التأثر من المظاهر الخارجيّة كالامتين المصرية والسودانية فاذا تمثّلت النواميس الطبيعية للطلبة في الاشباح والاشياء المحسوسة في معامل المدرسة اصبحت هذه النواميس مألوفة لديهم. ثم ان التعليم العملي الذي يشغل العين واليد والفكر ما بين رسم باليد او بالآلات ونقل تلك الرسوم الى المعادن والاخشاب وتمثيلها فيها واستعمال الادوات المختلفة تدريجًا على اسلوب الارتقاء العقلي لمن الامور التي تعوّد الطالب على التعليل العلمي الصحيح دون ان يتكلّف مشقة او عناء فان الاعمال اليدوية تمرّن اليدين وتكسبهما اللباقة فضلاً عن انها تجلو العقل وتلذّ الحواس فتكون النتيجة التعليم في اوسع معانيهِ وارفعها اذ تشتدُّ قوّتا الملاحظة والتعليل ويتسع الفهم والادراك اتساعًا يمكن الانتفاع بهِ في جميع الاعمال أضفْ الى ذلك ان الطلبة يتخلصون من السآمة والضجر اللذين يلازمان التدريس العادي فان الاوّل ينمي العقل والثاني يملأهُ والفرق بين الاثنين جليٌّ واضح" . . . .

وقد قال المستر كري ان في الخرطوم وام درمان مدرستين ابتدائيتين ومدرسة ثالثة لاعداد المعلمين من الوطنيين وان عدد الطلبة في المدارس الثلاث ٤٥٠ وان في حلفا وسواكن مدرستين اخريين ومدرسة صغيرة في بربر وانهم ينوون فتح مدرسة اخرى في دنقله في اول السنة القادمة ثم اشار الى رغبة الاهلين في تعليم اولادهم واقبالهم على هذه المدارس وتنشيطهم رجال الحكومة وان العلماء منهم يشدون ازرها. وتلاهُ سر تجار الخرطوم ونظار مدارس ام درمان والخرطوم وبربر. ولمّا فرغوا وقف اللورد كتشنر فشكر سعادة السردار على ترحيبهِ بهِ بالاصالة عن نفسهِ وبالنيابة عن اصدقائهِ في السودان واشار الى ما لقي من الحفاوة والاكرام من جميع الذين عرفوهُ ابّان وجودهِ في الجيش المصري الى ان قال مخاطبًا الحاكم العام

"لمّا دعيت الى جنوب افريقية ابقيت لسعادتكم الاهتمام بهذا المشروع الذي يمهد للسودانيين سبيل تلقي العلوم العالية وقد سررت سرورًا فائقًا اذ وجدت لدى عودتي ان اقصى الهمّة بُذِل في سبيل نيل تلك الغاية ودهشت اذ شاهدت ما تمّ من البناء واني اوافق المستر كري على ما قالهُ من ان هذا المشروع لا يكمل على الوجه المطلوب الاّ بعد مدّة طويلة لكني اعترف انني لم احلم بمثل هذه السرعة في العمل واثق انهُ اذا ظلت الهمة مبذولة على هذا المنوال في ادارة كلية غوردون فنجاحها سيكون كالذي قدرتهُ لها او يفوقهُ وقد اتضح لنا ان اهل السودان راغبون في تعليم اولادهم وانهم مجمعون على استحسان الخطة التي وضعتاها لبلوغ هذه الغاية في المستقبل وانهم مستعدون لبذل ما في وسعهم في مؤازرتنا وقد استفدنا من اختبارنا في المدارس

الابتدائية السودانية ان الطلبة قابلون التعليم فقد اتصل بي ان هذه المدارس على حداثة عهدها تضارع مدارس مصر الابتدائية فلم يعد في وسعنا سوى الاعتراف ان ليس هناك ما يمنع نموَّ التعليم وارتقاءهُ في السودان وانهُ لا ينقصنا الفتيان المشتاقون الى تحصيلهِ . ويسرّني ان ارى على وجوه الطلبة الذين يلوننا من امارات النجابة ما يدفعنا الى الثقة بان لدينا ارضاً خصبة يعود العمل فيها بالاقبال على البلاد فتصبح مركزاً للتمدن بعد ان كانت كما تعلمون جميعاً لكني لا ازال اقول ما قلتهُ آنفاً من أن هذه الآمال لا تتحقق الاَّ بعد زمان طويل . وقد كان الغرض من تسمية هذا الصرح التذكاري مدرسة كلية اقامة معلَّم يكون في المستقبل بمثابة النواة للتعليم الثانوي والعالي والصناعي في السودان فيتخرج فيهِ شبان فيهم الكفاءة لتولي المناصب التي تحتاج الى امثالهم الآن في بلادهم وسانتظر بملء الصبر والسرور تلك النتيجة العظيمة التي تنتجها هذه المدرسة واستحسن في الوقت عينهِ ان ينتق ريع مال الكلية على نشر التعليم الابتدائي في انحاء السودان ولي امل كبير (كما قال المستر كرومر) انني متى انقضت مدة خدمتي في الهند وهي خمس سنوات اعود الى الخرطوم فارى الكلية سائرة على الخطة التي وُضعت لها وليس انتظار خمس سنوات او عشر بالانتظار الطويل اذا قضيت هذه السنوات بجدٍ وهمة في انجاح مشروع يؤول الى تنوير امة باسرها وتحسين آداب جنس . واني ارى بعين الامل مئتي طالب في هذه المدرسة وفرقة من المعلمين الانكليز الاكفاء يعيشون معهم بالوفاق والوئام فيهذبونهم ويدربونهم وينيرون عقولهم حتى تنمو آدابهم ويصبحوا قادرين على تولي المهام في الجيش والخدمة الملكية والاعمال الصناعية . نعم ان مال المدرسة البالغ مئة الف جنيه لا يؤدي ريعاً يكفي للقيام بنفقات التعليم الثانوي في المستقبل ولكني واثق ان سعادة الحاكم العام بصفتهِ رئيساً للمدرسة وكونهِ غير مقيد بشيء من القيود في ادارتها يستطيع ان يدخل من التحوير والتبديل ما تقتضيهِ الحال حتى تظل المدرسة قادرة على القيام بما يُطلَب منها . ومتى اخذت تسير في خطتها فلا ريب في زيادة مالها بما تمنحها الحكومة وما يأتيها من اجور التعليم بحيث تستطيع ان تماشي البلاد في تقدمها وارتقائها . ثم اثنى على جميع الذين اسعفوا المدرسة بهباتهم وخصَّ منهم السر وليم ماذر والمستر ولكم وقال ان الكلية ينقصها كثير من المعدَّات وانها تقبل ما يأتيها من الهبات بسرور وشكر اللورد كرومر والسردار على ما بذلاهُ من الهمة في تحقيق آمالهِ وعدهما شريكين لهُ في العمل وبعد ان دعا للمدرسة بالنجاح اعلن فتحها رسميًّا

وسيكون فتح هذه الكلية في الخرطوم فاتحة عصر جديد للسودان فتبزغ فيهِ شمس المعارف والعلم وترسل انوارها فتبدد غياهب الجهل وتعد شبان السودان ليكونوا رجالهُ في المستقبل